

## الكتابة في عصر الخلافة بالأندلس 316-422 هـ / 929 - 1031 م

أ. عبد الرحمان رزقي<sup>1</sup>

الأندلس تمثل بتاريخها الحافل وتراثها الزاخر قصة حضارة عظيمة وذلك لما قدمته للبشرية من عطاءات جمة نتيجة ذلك النتاج الفكري والثقافي الذي خلفه الأندلسيون. فكانت الكتابة إحدى الصور التي تجلى فيها العطاء وذلك لأنها من أهم الوظائف السلطانية التي لاغني عنها على المستويين الداخلي والخارجي، وسنحاول في هذه الدراسة التعرف على الكتابة في عصر الخلافة بالأندلس محاولين تعقب الأسئلة التالية: ماهي الشروط والمؤهلات التي كان يتم بها اختيار الكاتب في عصر الخلافة بالأندلس؟ فيما تمثلت مهام الكاتب في هذا العصر؟

### 1. شروط اختيار الكاتب:

إن اختيار الكاتب ليس بالمسألة الهينة نظرا لرفعة مرتبة الكتابة لذلك كان يتم اختياره من أرفع طبقات المجتمع ومن أهل المروءة والحشمة منهم، وذوي العلم وعارضة البلاغة، ولقد خصص القلقشندي جزء مهم من كتابه صبح الأعشى لصفات الكتاب وشروط اختيارهم ، ومدى ثقافتهم وآدابهم ، فذكر الشروط التي يجب ان تتوفر في الكتاب وهي محصورة في عشر صفات أولها الإسلام وذلك " ليؤتمن فيها يكتبه ويمليه " <sup>2</sup> ، وكان شرطا أساسيا في كتاب المغرب والأندلس جرى حكام الدولة الأموية في الأندلس على حشد أقطاب العلم والبلاغة إلى حواضرهم من الكتاب الذين امتازوا بقسط وافر من الثقافة العربية التي أعانتهم وأهلتهم لشغل هذا المنصب **كابن القصيرة** الكاتب ، ومحمد بن مسعودن 540 هـ /114 م ، وأبي القاسم محمد بن عبد الله ت 515 هـ، وغيرهم من الكتاب الذين جعلوا من أنفسهم محط نظر واهتمام أهل الحكم والسياسة، فهذا ابن دحية الكليني مثلا يصف لنا الكاتب أبا القاسم محمد بن عبد الله 515 هـ بن الجد بقوله " وكان من أهل التفنن في

<sup>1</sup> جامعة تلمسان

<sup>2</sup>. القلقشندي " صبح الأعشى في كتابة الإنشا ، ج، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1922، ص 61.

المعارف والتقدم في الأدب والبلاغة ، وله حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث " (1) . كما كان الكاتب أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال ت 540 هـ / 1146 م "احد من انتهى إليه علم الأدب ، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى " (2) .

ويستمر الفلقتشندي في سرد شروط الكاتب لأن أولى في كاتب السلطان لعموم النفع والضرر به، منها الذكورة ، الحرية ، البلوغ ، العدالة، البلاغة ، رجاحة العقل ، الرأي ، المعرفة بالأحكام الشرعية ، قوة العزم ، شرف النفس ، والكفاءة لما يتولاه .

إذ تولى عدد غير هين من النصارى واليهود مناصب حساسة في الدولة الأموية بالأندلس وتحديدا في فترة الخلافة، ومن الأسماء التي تذكرها المصادر التاريخية حسداي بن إسحاق بن عزرات 975 م وكذلك ريثموند المعروف باسم ربيع بن زيد (3) ، وكان محظيا عند الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر بالله فيما بعد وعلى ما يبدو ان تجاوز شرط الدين ، كانت له دوافعه، منها استمالة هذه الفئة من المجتمع وضمان ولائها للدولة ، ضعف الوازع الديني لدى بعض الخلفاء، الكفاءة الأدبية العالية. فحسداي وصل إلى الكتابة السلطانية وبعض الأعمال بأنه : وحيد عصره الذي لا يعدل به خادم الملك في الأدب وسعة الحيلة " (4) ، ويفترض إلى جانب هذا أن كان متقنا للغة النصارى في الأندلس ، كذلك العبرية. فكان من الطبيعي أن يتمكن هؤلاء الذميين -نصارى ويهود - من الارتقاء إلى هذه الخطط السلطانية من أجل خدمة مصالح الدولة ، من غير أن يشكوا أي مصدر قلق أو تخوف لدى السلطة الحاكمة

أما فيما يتعلق بالشروط العلمية التي يجب أن تتوفر في الكاتب أن يكون ذا علم وثقافة واسعة ، إذ أن الكاتب هو مستقر أسرار الملك ولسانه الناطق عنه في آفاق مملكته وأقطار بلاده ، فلا يختاره السلطان ممن يوقعه موقع نقص بين رعيته أو مراسليه من الملوك ، فكان بذلك أحوج إلى أن يكون له مشاركة في جميع العلوم ، إلى الاستكثار من حفظ الرسائل

1. ابن دحية ، المطرب، المصدر السابق ، ص 147.

2. عبد الواحد المراكشي . المصدر السابق ، ص 237.

3. اعتمد عليه الخليفة عبد الناصر في الكثير من السفارات، كان سفيرا كفوا للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وقد اوفده لدى الملك اوتو الأول . ابن عذاري ، المصدر السابق ج2، ص218.

4. ابن حيان ، المصدر السابق ، تحقيق شالميتا ، ص466.

السلطانية وعيون الأحاديث النبوية ، كما ينبغي أن يكون أكثر علمه أخبار الملوك والسير والدول والتواريخ ومعرفة أخبار الدول كما يجب أن يكون مستعدا للرد على أي نوع من المكاتب ، وفي أي موضوع كان إلى أي شخص مهما كانت مرتبته جليلا كان ام رضيعا ، فيخاطب كلا حسب مرتبته فهذا وحده دليل على سعة علم الكاتب ووفرة ثقافته.

وتعتبر رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب (16) التي كتبها إلى الكتاب من أهم الدساتير التي تناولت الصفات العلمية والذاتية والأخلاقية التي يجب أن يتمتع بها الكاتب ، ليبقى في مستوى مهنة الكتابة الشريفة التي يمارسها.

## 2. مهام الكاتب ورسوم الكتابة:

لعل من أهم الوظائف الأساسية الموكلة للكاتب هي تحرير الرسائل الرسمية التي تحمل في طياتها أنواع الأوامر والقرارات التي يريد الخليفة إنفاذها إلى من يريد مخاطبته من الزعماء والملوك خارج دولته ، أو إلى مختلف العمال والولاة والقضاة وأصحاب الأشغال وغيرهم داخل البلاد ، وكانت تتم هذه العملية في ديوان الإنشاء، حيث يعمل الكاتب على تحرير الرسائل وكتابتها بنفسه ، أو يعمل على إملائها على أحد مساعديه فيكتبها (2).

إن عمل كاتب السلطان الرئيسي لم يقتصر على تحرير الرسائل المتسمة بالبلاغة وإنشاء المخاطبات الرسمية بل يتسلم الرسائل الواردة إلى الخلفية ، فيعمل على قراءتها عليه واستشارته حول نوع الرد عليها ، هذا مع إشراف الكاتب الرئيسي على مراقبة صغار الكتاب في الديوان والإشراف عليهم في كتاباتهم الثانوية التي يقومون بها (3).

ولقد كانت الوزارة في هذه المرحلة تعتبر مجرد وزارة تنفيذ (4) ، دون أن يكون للكاتب استقلال بالقرارات ذلك لأن الخلفاء الأمويين أحكموا قبضتهم على مقاليد الأمور ، وأشرفوا بأنفسهم على أحوال البلاد ، ومن هنا كان الوزراء منفذين لأوامرهم ، فلم يكن للوزير أو الكاتب نفوذ سياسي كما كان في كثير من الممالك ، إلا ما كان يبدئانه في شؤون الدولة من المشاورات كالعلاقات العسكرية وغيرها بصفتهم طرفي نقاش ، إلا أن صاحب الإحاطة يورد

1. هو الكاتب الشهير عبد الحميد بن يحيى بن سعد. ترجمته في ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3 ص 228.

2. القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 144.

3. نفس المصدر والصفحة.

4. يقسم المارودي الوزارة إلى قسمين: وزارة تنفيذ ووزارة تفويض فاخص وزير التنفيذ بتنفيذ أوامر الخليفة. المارودي،

المصدر السابق، ج 1، ص 128-134.

لنا إشارة من أن ابن عطية " فوض إليه -أي الخليفة - النظر في أموره كلها ، فنهض بأعباء ما فوض إليه وظهر فيه استقلاله وغناؤه .... وكانت وزارته زينا للوقت وكامالا للدولة " (1) ولا يعلم هل كانت وزارته وزارة تفويض فعلا حسب ما قرره الماوردي سابقا ، أم أنه قصد بها القيام المثالي بأعباء الوزارة نظرا لخبرته الإدارية كونه كان من الموظفين والكتاب السابقين .

ومن المهام الأخرى والاختصاصات التي يضطلع بها كتاب الدولة الأموية كتابة نص البيعة ، ثم إلقائها على الوفود المبايعة ، وكان لهذه المبايعة صيغة خاصة يلقيها الكاتب من على المنبر وهي " تبايعون أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة في المنشط والمكره والسير والعسر ، والنصح له ولولاته وعامة المسلمين ، هذا ماله عليكم ، ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم وألا يدخر عنكم شيئا مما تعمكم مصلحته ، وأن يجعل لكم عطائكم ، وألا يحتجب عنكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما تقلد من أموركم " (2)

وهذه الصيغة عادة ما تكون مثقلة بتعابير البراءة من الله عز وجل ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن جميع نسائه طوالق وما يملك من إماء وعبيد أحرار لوجه الله وكل ما يملك من ثروة فهي لفقراء المسلمين ، وأن يحج إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة ما شيا من مكانه هذا إن نكت البيعة أو بدل ولائه لأمير المؤمنين .

كذلك كان الخليفة الأموي يوكل احيانا مسألة التحقيق مع بعض العمال والولاة على الأقاليم إذا بلغه عنهم سوء تصرفهم مع الرعية ، أو ظلمهم للناس أو تبذيرهم لأموال بيت المال والإسراف في لإنفاقها ، يكل إلى بعض الكتاب التحري في المسألة ومحاسبة هذا الوالي أو العامل على ذلك ، من ذلك ما قام به الخليفة عبد الرحمن المستنظر بالله من تعيين الكاتب ابن برد الأكبر مع بعض الموظفين لمحاسبة عمر بن عبد الله الأمير على اشبيلية ، لمحاسبته والوقوف على عمله ، لما بلغه من ظلمه وجوره . كتب ابن عذاري يقول ".... فابرز لمحاسبته أبا محمد ابن يحيى وأبا عبد الله الكاتب وكان تحت نظرهما من كتاب الجهات نحو خمسين كاتباً ، وأقاموا في نسخ وتقييد ، وتبيض وتسويد ، واكباب على بحث

<sup>1</sup> . ابن الخطيب ، الإحاطة ، المصدر سابق ، ج1، ص182-134 .

ابن حيان ، المصدر السابق ، ج2، ص230.<sup>2</sup>

وتتقريب ، وتصديق بعض وتكذيب " (1) ويحضر جلسة التحقيق هذه ويشهد عليها مجموعة من الفقهاء والقضاة ويكتب محضر في ذلك يشار فيه إلى تاريخ اليوم والشهر والسنة ، وقد تستمر هذه الجلسة أياما معدودة.

وفي بعض الأحيان يناط بالكاتب بالإضافة إلى عمله في مجال القلم والإنشاء ، قيادة الجيوش المتوجهة للقيام بقمع حركة تمردية أو مواجهة جيش معاد أو القضاء على شغب مدينة أو مقاطعة ، أو مرافقة بعض القادة الكبار أثناء ذلك ، كأن يكون ولي العهد ، أو الخليفة ذاته. من ذلك ما حدث مع ابن مرهون الكاتب على عهد الخليفة المستكفي بالله لما خرج عليه بعض المنتزعين وتمردوا على طاعته ، فنجدته أوكل قيادة الجيش إلى وزير الكاتب أبي جعفر بن هارون وفي ذلك يقول ابن عذاري " .... وحين بلغ الخليفة خروجهم على غير طريقه ساء ظنه بهم ، فوجه في الحين ابن هارون ليصدهم عن تعديهم ، ويردهم عن التغيير الذي يريدهم فوصل ابن هارون فوجدهم قد أحدثوا أحداثا وقتلوا ..... فنفذ لهم من الله القضاء ، وحق لهم من الحسام الاقتضاء ، فقتلوا وصلبوا" (2)

وكانت هناك مجموعة من الرسوم السلطانية الخاصة بالكاتب ، فاقتضت مثلا أن يكون له مجلس خاص بديوان الرسائل أو ببيت الكتابة ، ويكون له فراش الوزارة (3). ويفترض أن يزود بدواة وكروسي ومسند ومخدة (4) ، وكان عليه الإكثار من التعطير ومواصلة استعمال البخور والمسك والطيب.

وفي هذا السياق يصف أحد الكتاب المراتب الأدبية والتشريفات العالية التي حظي بها صاحب العلوم من وسائل الوصول إلى منصب الوزارة ، كما ظهر في الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا مناصب الملك وتقلبوا مراكز الدولة وكانوا جميعا من الأدباء والعلماء والكتاب (5).

ولا بد من التنويه بأنه في كثير من الأحيان كان يطلق لقب الوزير على الكاتب تشريفا له وتعظيما وليس بالضرورة أنه يقوم بمهام الوزير .

1. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص154.

2. ابن عذاري ، المصدر نفسه، ص51.

3. ابن القوطيه، المصدر السابق، ص97.

4. القلقشندي، ج1، ص102.

5. ابراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، القاهرة، (د.ت) ، ص 300.

أن هذا التداخل بين الوزارة والكتابة نجده في بداية الدولة الأموية في الأندلس وتحديدًا في عصر الإمارة ، إلا أن الدولة في البداية عهدا ونشأتها لم تتخذ الرتب والألقاب ولم يكن ذلك إلا بعد استقرارها ، وهذا ما نلمسه من خلال المصادر التاريخية ، كتب ابن خلدون يقول "..... لم يكن عندهم من الرتب غير الوزير، فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية ، وعبد السلام الكومي ، وكان له مع ذلك النظر في الأشغال المالية" (1).

وأشار إلى ذلك صاحب كتاب المعجب "..... فإنها لم تستكمن في مقام الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتميز المراتب والخطط الملوكية إلا في أوساطها لما استفحل أمرها ، فلم يكن لهم من المراتب إلا الوزير ، وكانوا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف التصرف العام ، المشارك للسلطان في الرأي الخاص" (2)، وقد جرت العادة بعد التشريف بلقب الوزير أن يتبع بحظوة ورزق معلوم بالإضافة إلى راتبه الشهري الذي يتقاضاه الكاتب ، هذا في داخل قصر الخليفة ن أما في خارجه فقد نال الديار الفاخرة والبساتين ، ومن أمثلة ذلك الكاتب **عبد الرحمن الزجاجي** كاتب الخليفة **عبد الرحمن الناصر** لدين الله الذي امتلك حيرا (3) خارج باب اليهود بقرطبة وهو من أجمل الأماكن " به جابية ، كل لج هبها كابية ، قد قريصت بالذهب واللازورد" (4).

تابع الخليفة الحكم المستنصر بالله نهج أبيه في تكريم كتابه الخاصين ، فصاحب الكتابة العليا وزيره الحاجب المصحفي (5) نال حظوة كبيرة فأصبح من كبار رجال دولته، وكان مقدا في صناعة الكتابة ، وجمعت له الكتابة الخاصة والكتابة العليا، كما تقلد الحجابة ، وقد سبق له أن أدب الحكم المستنصر مما أزلفه وأكرمه.

1. ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص253.

2. عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق، ص 266-267.

3. الحير: هو مكان يجتمع فيه الماء ، وهو هنا المقصود به البستان .المنجد في اللغة والإعلام.ص365.

4. المقري ، المصدر السابق، ج2، ص161.

5. هو ابو الحسن جعفر بن عثمان، استكتبه الناصر ورقاه في المناصب الكبرى مثل النظر في أعمال جزيرة ميورقه وكذا الشرطة الوسطى ابن الأبار. المصدر السابق، ج1، ص257. كان من أهل الأدب والعلم تقلد الوزارة فنتله المنصور ابن أبي عامر سنة 372هـ/972م في السجن.

وفي ذلك يقول ابن خاقان " وعنه كان يسمع ويبصر فأدرك بذلك ما أدرك ، ونصب  
لأمانيه الحبال والشرك " (1). كانت له منية بغربي قرطبة ، لكنها آلت بعد نكبته إلى حاجب  
المنصور .

ديوان الرسائل قائلاً " فنعنا الشريفة اقتضت حكمتها أن تضع كل شيء في محله :  
وفضلها المنيف أبي أن يكون إلا لأهله ، وسرنا المصون ، بخل أن يجلس إلا في صدور  
الكرام الكاتبين . " (2).

وكان من المعتاد أن يجلس أهل الخدمة السلطانية عند حضور الخليفة في الأعياد  
والاحتفالات وعند قدوم سفارات الوفود الأجنبية من ملوك النصارى المسيحيين كل حسب  
مرتبه ، وكانت مرتبة الكاتب الخاص هو جلوسه عن ذات يمين الخليفة (3).

وكانت للكتاب لدى السلطان عطلة مرتبطة برسم تعطيل الخدمة في الديوان يوم الأحد  
عطلة الأسبوع وهو تقليد قديم يعود إلى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الأول ،  
وكان أول من سن هذا التقليد كاتب الأمير محمد قوس بن انتنجان . مما دل على مدى تأثير  
المجتمع الإسلامي في الأندلس بالنصارى المستعمرين في رسوم حياتهم ومثل ذلك رأينا  
أيضا في اصطناعهم للأعياد النصرانية وكان لديوان الرسائل مجموعة من الرسوم الإدارية  
وكذا الرمزية وهو ما سوف نعمل على بيانه من خلال استجلاء التكامل داخل نظام رسوم  
الكتابة السلطانية وكتابها .

#### أ. رسوم تعيين الكاتب:

كان يسبق قرار تعيين كاتب الخليفة مجموعة من الرسوم الإدارية منها إجراء اختبار  
قدرة وكفاءة ومهارة للكاتب في الأمور البلاغية ، فان اثبت جدارته نال منصبه ، وعادة كان  
هذا الرسم من اختصاصات الخليفة ، الذي يمنح له قبوله صك سلطاني في شكل ظهير أو  
أمر (4) مؤرخ يتم بموجبه تقليد كاتب السلطان الذي يكون محلفا ويؤدي اليمين قبل مباشرة  
عمله مثل أمر عبد الرحمن الناصر المؤرخ سنة 344 هـ الذي أصدر بموجبه تقليد الكتابة

ابن خاقان، مطمح الأنفس، المصدر السابق ، ص56<sup>1</sup>.

<sup>2</sup>. تقي الدين أبي بكر بن حبه الحنفي الحموي ، قهوة الإنشاء، مخطوطة، تاريخ النسخ 840هـ/1402م، رقم 1898  
المكتبة الوطنية ، الحامة، الجزائر، ورقة رقم 3.

. ابن حيان، المصدر السابق ، ص81<sup>3</sup>.

. ابن القوطية، المصدر السابق ، ص97، ابن حيان ، المصدر السابق<sup>4</sup>.

السلطانية وتوزيعها على أربعة من وزرائه . هذا ولقد كانت هذه الرسوم جارية على معظم الخطط والوظائف الكبرى في الدولة الأموية في الأندلس كالحجابه والقضاء والولاية وغيرها.

### ب. رسوم الكتاب السلطاني :

حرص الخلفاء الأمويون بأندلس على شكل والمضمون في رسائلهم وقد وضعوا شروطا ألزموا جميع الكتاب التقيد بها ، ومنة هذه الرسوم أن تكون الكتب من الخلفاء وإليهم وإلى الرؤساء بأكمل الخطوط وأبينها وأحسنها (1). ويراعي المداد ويميز الرق فيحسن اختياره ، ولا يستثنى أحد من هذه التعليمات سواء ولاية الكور وقادة الثغور من إتباع هذه الرسوم ، فمن أرسل كتاب الدار الوزراء بقرطبة في رق رديء أو مداد دبي ، أو كان خطه غير جيد ، أو في عبارته لحن وما شكل ذلك ، فلا ينظر في طلبه ، بل سيعاقب بالعزل وإغرام المال . (2) وكان رسم كتابتها أن تكون الأسطر ممتدة إلى سطح البطاقة الأيسر وأن تكون أسفل الأسطر في البطاقة، ينقص من سطر البسملة الربع أو نحوه وأن تكون الكتب من الملوك والرؤساء إلى من دونهم في طول البطاقة. (3) وينبغي للملك أن يكرم صديقه أو من يكتب إليه عن أن يكتب إليه في ظهر كتابه أو ظهر غيره ن إلا من الضرورة القصوى وتكون تسوية البطاقة على وجهين ، وأن تسوى الجهة الواحدة منفردة ثم تقاس عليها الجهة الأخرى . (4) وكان الوزراء يطالعون بأرائهم إلى الأمير في بطاقة ، لكن وزيره النضر بن سلمه طالعه برأيه في أمر ما في ورقة ، فلما وقف عليها الأمير عبد الله لم يعجبه ذلك فكتب له :

ليست ترجى لفائدة

أنت يا نضر أبده

لكنيف ومائدة (5)

إنما أنت عدة

ولم تتميز الرسائل السلطانية من حيث الأركان والعناصر المكونة عن ما هو معمول به في باقي الدول الإسلامية .وهي : البسملة والتصلية على رسول الله الكريم صلى الله عليه وعلى اله وسلم وعلى صحبه والبعدية (أما بعد) ، ذكر المرسل إليه والدعاء لهما ، التحية

. ابن السماك العاملي ، رونق التحبير، ص153

ابن بسام الشنتريني ، المصدر السابق ، ق1، م1، ص293

ابن سماك العاملي ، المصدر السابق، ص53.

نفس المصدر والصفحة.4

. ابن عذاري ، مصدر السابق ، ج2، ص154.5



والتحميد ، والغرض من الكتاب ، والخاتمة وتاريخ الكتاب وتختتم بالسلام والدعاء. ويورد ابن عذاري في البيان المغرب نمودجا لذلك هو عبارة عن كتاب عبد الرحمن الناصر إلى الولاية عندما لقب نفسه الخليفة أمير المؤمنين .<sup>(1)</sup> في حين أن القلقشندي بعد معاينته للرسائل السلطانية في الأندلس وجد فيها سمات تميزت بها عن بلاد المشرق. ومن أهم هذه الميزات التي طبعت أسلوب كتاب الرسائل في المغرب والأندلس: ميزة ميم الجمع ، ويقصد بها تكريم المكتوب إليه وإجلاله واستعمال واستعمال عبارة ( إنا كتبنا إليك كتب الله لكم). ذكر الخليفة الداعين له بعبارات الترضية ، ذكر المكتوب إليه باسمه ضمن الرسالة .<sup>(2)</sup> ولقد جاء في كتاب الحلل الموشية نص في غاية الأهمية مفاده أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله بعد مرور عام على تلقيه بلقب الخليفة " نفذ كتابة أن يكون الخطاب كله جوابا بالكتابة عنة (بالهاء التي هي كناية الغائب " دون الكاف" التي هي كناية المخاطب مفرقا بينه وبين من هو دونه، وأن يلتزم ذلك أهل المملكة .... تعظيما لقدره وإكبارا لمحلّه فجرى الرسم بذلك."<sup>3</sup>

ولا بد من الإشارة إلى أن الانقلابات السياسية والاضطرابات التي طرأت على الأندلس مع بداية القرن الخامس الهجري /الحادي عشر ميلادي، وتحديدا عندما اندلعت الفتنة سنة 399، أدخلت ميزات أخرى على الكتابة وتأثرت بها، حيث تميزت بالتدني والتدهور وأصبحت تتماشى مع الظروف ولا تعبر بالضرورة عن القناعة والرضاء والإيمان الصادق بما يكتب الكاتب . فقد تدهورت كافة الخطوط وأصبحت عبارة عن زخرفة لفظية مسطرة. لذلك تدنت خطة الكتابة السلطانية وكتابتها ورسومها. ومن الأمثلة على ضعف شخصية كتاب الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة في يد حكام هذه المرحلة التاريخية. مستهدفين ومذمومين من قبل العامة ، الكاتب ابن برد الأكبر وكان يعتبر من أقطاب النشر السلطاني وله حظ وافر من الأدب والبلاغة وقد تولى ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري في الدولة العامرية- حيث

1. المصدر نفسه ج2، ص198-199.

2. القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص30-36. سامية جباري ، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس، من فتح

الأندلس إلى سقوط غرناطة.رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة الجزائرص165.

3. مجهول، الحلل الموشية، ص32.

قام بأمر من الخليفة هشام المؤيد وتحت تهديد بالقتل بسيف الحاجب عبد الرحمن ( شنجول) بإصدار مرسوم ولاية العهد (1)

لهذا الحاجب بشهادة وإمضاء القاضي بن ذكوان. (2)

ولعل من أوضح المواقف التي أبرزت رضوخ كتاب السلاطين لمنطق القوة وسيف السلطة وضعف وركاكة الأسلوب واللغة والبيان ، ما ورد عن صاحب الذخيرة حول عقد البيعة للكاتب المذكور أنفا ابن برد الأكبر باسم سليمان الملقب بالمستعين حيث يقول " وكان أحمد بن برد قد تقدم في عقدها باسم سليمان بن المرتضى فبشره وحك اسمه ، وكتب اسم عبد الرحمن ( المستظهر بالله (3) مكانه . (4)

ولقد ازداد أمر الكتابة السلطانية تدهورا وانحطاطا عندما أصبح يرتقي إليها من لا يفقه شيئا ولا تتوفر فيه الشروط التي سبق لنا ذكرها ، فابن بسام يخبرنا بأن الخليفة المستكفي (5) كان يقول للناس أجمعين ارتاعوا كيف شئتم وتسموا بما أحببتم من الخطط. فتسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومثناه أرانل الدائرة وأخا بث النظار ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة ". (6) ويبدو من الألفاظ والكلمات التي استعملها الكاتب تدمره الشديد وامتعاضه من الأوضاع التي ألت إليها أمور الكتابة، وهو نقد جلي لا شك في ذلك.

الحميدي، المصدر السابق ، ق1، ج1، ص 91-92.<sup>1</sup>

<sup>2</sup>. هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان : اشتهر بالعلم والفصل كان مستشارا للحاجب المنصور ويعول عليه في معظم أموره حتى تدبير الملك. لقب بقاضي القضاة وكان أول من تسمى بهذا الاسم في الأندلس توفي سنة 413هـ/1035م. النباهي، المرقبة العليا، ص115.

<sup>3</sup>. المستظهر بالله هو عبد الرحمن الخامس بن هشام ، ولد سنة 392هـ/1002م. وكان أول من رد الأمر إليه من بني أمية لقب بالمستظهر بعد مبايعته في جامع قرطبة في 16 رمضان 414هـ/1023م. ولم تدم خلافة إلا أشهر. قتل من نفس السنة بنظر ابن بسام ، المصدر السابق ق1، م1، ص48-55. ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص125، المراكشي، ج1، ص105.

. ابن بسام ، المصدر السابق ، ق1، ج1، ص49.<sup>4</sup>

<sup>5</sup>. نفس المصدر، ص336.

<sup>6</sup>. المستكفي : هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن ، ولد سنة 366- وكان أبوه قد قتله محمد بن ابي عامر في أول دولة هشام المؤيد، ابن حزم ن المصدر السابق ، ص100، الحميدي ، المصدر السابق، ص28.

إن القيمة التاريخية لهذا النص تكمن في صراحته ، حيث جاءت العبارات واضحة لا تورية فيها ، بل عكس الأوضاع السياسية والإدارية المتدهورة التي آلت إليها خطط مؤسسات الدولة من الفوضى والارتجال.

وبالرغم من ذلك نستطيع من خلال هذه النصوص وغيرها أن نقف عند مستوى الانحطاط الذي بلغته الكتابة السلطانية في الأندلس في هذه الفترة الحرجة من تاريخها ، كانعكاس للتدهور الأخلاقي والاجتماعي والنفسي والثقافي لكتاب السلاطين إبان فترة الفتنة إذ تعد من أهم ما جاء في الباب تصوير نماذج الكتاب، وبدورها تأثرت رسوم الكتابة بتداعيات الفتنة.

ومن خلال دراسة بعض النصوص كنماذج يتضح لنا أن رسوم وتشريعات الكتابة الرسمية أصبح لا يتقيد بها من قبل الخاص والعام . وأصبح الخلفاء يقبلون الاعتذار عن رداءة الرق والبشر بل تجاوز ذلك إلى المكافأة بالعطاء والثناء . وهذه الحالة بكل تأكيد بعيدة كل البعد عن ما كان يجري سابقا، حيث يعاقب الكاتب بالعزل وإغرام المال في حال إخلاله برسم من رسوم الكتابة.

وبتضح مما سبق ذكره أن عناية الأمويين بالأندلس بنظام الكتابة ورسومها لم يكن يهدف إلى تزيين الواجهة السياسية فقط وإنما إبراز نخبة من طبقة الكتاب ، وكان وراء ذلك كذلك دافع إقامة مؤسسات إدارية متدرجة حازمة قوية ذات أبعاد إستراتيجية تمثلت تحديدا في التخصص والانضباط الدقيق لإدارتها مما نتج عنه مجموعة من الدلالات الحضارية أضفت على الأندلس فيلا عصر الخلافة الرخاء والازدهار.